الحياة
ALHAYAT
ت .م :15-04- ت .ه :21-01-
2001 - 1422
العدد :13909 - الصفحة :17

لبنان بين الانشطار الطائفي وتعميم الحماقة :أخ يا بلد !

نهلة الشهال

وتيرة تكرار تناول الشأن اللبناني على هذه الصفحة تستوجب الاعتذار .فإذا اتخذنا العدل مقياسا ولم نكن من المنحازين الى نظرية 'هل كم أرزة العاجقين الكون '، وجب الاقرار بأننا تجاوزنا كثيرا حصة لبنان، مقارنة بحجمه وعدد سكانه .

ثم ان دوران مشكلات هذا البلد ضمن دائرة بات يحفظها الجميع عن ظهر قلب، هو مما يزيد من وطأة هذا الاحساس .يقولون لنا :ماذا من امركم؟ انشطار طائفي وحضور سوري وأداء سياسي واقتصادي واجتماعي يتميز بالتخبط والافتقاد الى المبادرة الحية .

إلا انه كان للبنان على الدوام خاصية قد تبرر التركيز عليه. إنه، في شكل ما، ميزان كاشف للحال العربية .

لم يحز لبنان على هذه الصفة بسبب ميزة عبقرية حباه الله بها، بل بسبب تكوينه نفسه الذي ارتبط بقوة بالدور الذي كان يختص به .قام البلد منذ بدايات القرن العشرين على صفقة - تسوية تعترف بالطوائف كمتحدات اجتماعية وتوزع بينها المواقع المختلفة في مؤسسات الدولة وتحدد آليات صيانة هذه المتحدات وتأمين استمرار تماسكها وإعادة انتاج لحمتها .انما، ومن ناحية اخرى، استند هذا البناء الى فرضية محددة تقول ان لبنان هذا المتعدد التكوين، يمكنه ان يختص بنوع من الخدمات كانت المنطقة العربية تحتاج من يقوم بأعبائها :التوسط التجاري) والمالي)مع العالم والأمان المصرفي التام، وخدمات اخرى كالتعليم والنشر والصحافة والسياحة، ترتبط ارتباطا وثيقا بحقيقة ان توازن مكونات لبنان وقدم عهد انفتاحه على اوروبا قد أديا الى نشوء تعدد في أنماط الحياة والتفكير، المفضية الى حال من الحرية، شكلت طويلا الرئة التي تنفست عبرها المنطقة برمتها .وكان قدر عال من تحييد لبنان عن تقلبات المنطقة هو الشرط اللازم لاستمرار هذا الدور .وقد حدث توافق عربي)ودولي)على احترام الحال اللبنانية الخاصة، كما كانت تسمى، ولم يكن ذلك تكرما، وإنما لأن هذا الدور كان يؤدي وظيفة فعلية تحتاجها بلدان المنطقة كما مراكز السياسة والاقتصاد العالمية المتعاملة معها .وقد بقيت الحال كذلك طالما ظلت قائمة الحاجة للدور اللبناني، هذا علاوة على استقرار نسبي لأحوال العالم، على الأقل وفق قوانين مفهومة ومعتادة .

لكن دخل لبنان منذ مطلع السبعينات في وضعية أنبأت بأن تغيرا جوهريا اصاب هذه المعادلة .ومذاك، وعبر محطات متكررة، على رأسها اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية واستمرارها ما يزيد عن خمس عشرة سنة وعدم تحرك العالم والبلاد العربية لايجاد صيغة لانهاء الحرب (اتفاق الطائف)إلا عشية مؤتمر مدريد (الذي يشكل، على رغم تعثرات العملية السلمية، وبغض النظر عن تأييده او رفضه، لحظة تاريخية في الصراع العربي الاسرائيلي)، ثم استمرار اطلاق اليد السورية في لبنان وحتى أجل لم يحن بعد منتهاه، مذاك اذا وحتى اليوم، يتأكد انزواء دور ووظيفة اختص بهما لبنان وبررا تكوينه وأعطيا هذا التكوين معنى وحصانة .ويتأكد ايضا واستطرادا، كم ان لبنان، في ازدهاره او بؤسه، في استقراره او اضطرابه، وفي علاقته بنفسه اجماليا كما في التفاصيل، هو رهين محيطه .

لعل قدرا كهذا من 'الخارجية 'يفسر عدم نشوء التشكل الوطني اللبناني .ولعل ازمة الدور والوظيفة اللذين اداهما لبنان ولم يعد، تفسر عراء الطائفية وفجاجتها التي تضرب البلد اليوم، شاطرة إياه الى نصفين، مقدمة عنه صورة كاريكاتورية .

وهكذا تنادى مختلف الفرقاء، وبتحد صاخب، الى إحياء ذكرى اندلاع الحرب الأهلية التي تصادف هذه الايام .ولكل تأويله ولكل غرضه ولكل الدلالة الرمزية التي يقصد .ثم اخيرا وفي عرف الاحتفالات، سعيدها وحزينها، فهناك ازمان للمناسبات ومدد، فتكون سنوية او عقدية او فضية والى ما ذلك .اما ان يفطن اللبنانيون فجأة الى ضرورة الاحتفال، كل من وراء متراسه السياسي والكلامي، بالذكرى السادسة والعشرين لاندلاع الحرب الاهلية فأمر غريب حقا .

وليست الطائفية من انحسرت عنها وظيفتها المعقلنة لها فبانت عارية فجة بدائية، بل تكاد هذه الصفات تصيب كل شيء في لبنان .فمن دون الاقرار بأن البلد يمر في فترة من الحماقة يصعب إيجاد تفسير لما حدث مع الصحافي سمير قصير. ليس فقط في ما يخص التهويل عليه وسحب جواز سفره وانما ايضا في المخرج المعتمد لهذه القضية المجانية، التي تقع على الارجح

في باب النكاية والحزازات، والتي، اذا ما لجأت السلطة اليها، تسمى في أرجاء العالم كافة :الاعتباط. إلا ان للاعتباط في لبنان نكهة خاصة، كالعادة في هذا البلد الذي يموت إن لم يتميز. هكذا ينشر الأمن العام بيانا جادا في الصحف يقول ان المدعو مولود لبنانيا لوالدين مجنسين، الأب يافاوي والأم لاذقانية، وان المستند الاساسي لتجنيس والديه مفقود من السجلات .يا للقانونية الصارمة !فماذا لو كان السيد قصير فينيقيا أبا وأما عن جدين متواليين حتى مخترع الأرجوان؟ حقا لا يليق القمع بلبنان، فهو لم يعتده ولا هو يجيده .واما بعض تلك الاوساط التي تحلم بالقبضات الحديد، فهي تقع بدورها في الكاريكاتور .

ومن دون الإقرار بأن البلد يمر في فترة من الحماقة المعممة، يصعب إيجاد تفسير لما يجري، وما زال جاريا حتى الساعة - مع المعتقلين السابقين في سجون الاحتلال الاسرائيلي .هؤلاء أمضى معظمهم سنوات عدة، تصل احيانا الى خمسة عشر عاما، في معتقل الخيام او في السجون الاسرائيلية .وحين خرجوا هللت لهم الدنيا لأيام ثم انصرف عنهم الجميع .وأول وأسرع المنصرفين كانت الدولة اللبنانية، هذه التي ملأت الدنيا ضجيجا حول الشجاعة اللبنانية الاستثنائية التي قاومت وحررت الجنوب .بل إنها، مع فرقاء لبنانيين كثيرين معنيين بهذا الشأن، مارسوا تشاوفا على الشعب الفلسطيني ومقاومته المستمرة بأشكال متنوعة، منذ اكثر من نصف قرن، وأعطوهم دروسا ودعوهم الى استلهام المثال !!ثم رموا بمقاوميهم، كما ترمى النفايات، على قارعات الطرق .

وتمارس الدولة في هذه القضية ايضا عنادا لا تحسد عليه .فلم يتنازل مسؤول صاحب سلطة ويزور المعتقلين المعتصمين امام السراي الحكومي والمضربين عن الطعام .بل لم يبادر احد من المسؤولين الى اعتبار الأمر يمتلك صفة الاستعجال الاستثنائي .هذا الاهمال العمد والمتمادي يقول امرا واحدا لا غير :ان السلطة تمارس الاعتباط متى شاءت، وانه لا مقدسات ولا روادع ولا قيم ولا تقاليد في البلد .أم ربما انه لا بلد؟

اذ كيف نفسر - علاوة على إهمال السلطة هذا - سلوك الناس .كيف لا ينشأ التضامن اللازم مع المعتقلين السابقين .كيف لا يبادر الفقراء الى نصرتهم، ويبادر بعض الاغنياء الى تبنيهم على طريقة التوأمة، كواحد لكل واحد منهم، مما رأيناه ونراه في العالم أجمع في حالات مشابهة، وهم ليسوا جحافل بل بضع عشرات؟ ولماذا، هناك في فلسطين، وجد كل أسير لبناني أما فلسطينية عطفت عليه، وأمدته، كل اسبوع وعلى مدى سنوات، بلا كلل ولا ملل، بالطعام واللباس؟

وبانتظار ان يعود المعتقلون الى معتقل الخيام ويضعون ايديهم عليه ويعيدون تأثيثه شقفا لهم، ويزرعون باحته ومحيطه ويأكلون مما يزرعون، بانتظار ذلك كحل وحيد بقي امامهم، وصلت أخبارهم الى محاميهم الأوروبيين السابقين، كما الى منظمات حقوق الانسان العالمية .وهؤلاء كانوا منهمكين، استمرارا لمهمتهم السابقة، في إعداد الملفات التي تتيح ملاحقة المسؤولين الاسرائيليين وزبانيتهم امام محاكم مناسبة، في تهم تتعلق بارتكابهم جرائم حرب وجرائم ضد الانسانية .فلم يفهموا ثم لم يصدقوا ثم حاروا في أمرنا .وإن هم تدخلوا غدا، لشعورهم بالواجب الانساني، فلعله يخرج من يرى في ما ينوون إثارته، مؤامرة أجنبية، بل صهيونية بالتأكيد!

الموضوع :عام

المصدر :الحياة